تغييب العربيّة في ظلّ الاحتواء والصراع الحضاري

أ.م.د عماد عبد يحيى

قسم اللغة العربية/ كلية الآداب

المستخلص

اللغة في المتعارف كما يقول ابن جني:(أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم). والتعريف يشير إلى اللغة بوصفها أصواتاً وظاهرة اجتماعية وإلى وظيفتها التعبيرية التوصيلية. ونظر أبن خلدون إليها بوصفها عبارة المتكلم عن مقصوده، وذكر أن تلك العبارة فعل لساني فلابد من أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان ومن هنا يلفت انتباهنا استعمال القرآن الكريم (اللسان العربي) مصطلحاً دالاً على اللغة العربية .

مدخل إلى المصطلح:

اللغة في المتعارف كما يقول ابن جني:(أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)[١]. والتعريف يشير إلى اللغة بوصفها أصواتاً وظاهرة اجتماعية وإلى وظيفتها التعبيرية التوصيلية. ونظر أبن خلدون إليها بوصفها عبارة المتكلم عن مقصوده، وذكر أن تلك العبارة فعل لساني فلابد من أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان[٢]. ومن هنا يلفت انتباهنا استعمال القرآن الكريم (اللسان العربي) مصطلحاً دالاً على اللغة العربية، يقول الله عز وجل: ((وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)) [٣]. ويقول: ((وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢)نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ(١٩٣)عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤)بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)) [٤]. ويقول: ((وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ)) [٥]. ومن جهة أخرى فقد عدَّ المعاصرون

(١) الخصائص:١، ٣٣.

(٢) المقدمة / ٤٥٤.

(٣) سورة النحل الآية ١٠٣، وينظر معاني القرآن، الفراء: ١١٣/٢.

(٤) سورة الشعراء الآيات ١٩٢–١٩٥.

(٥) سورة الأحقاف الآية ١٢.

مصطلح اللسان صورة منظمة ذات قواعد وقوانين وذات وجود اجتماعي، فهو النموذج الاجتماعي الذي استقرت عليه اللغة، أو هو السلوك السوي لأغلبية عظمى من أبناء الأمة الواحدة [١].

ومن هنا فإن الرسول محمداً –صلى الله عليه وسلم– علمنا دلالة العربية عندما خطب فقال: **(أيُّها النّاس، إنَّ الرَّبَّ واحِدٌ، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أمّ، وإنّما هي اللّسان، فمن تكلّم العربية فهو عربيّ)** [٢]، فجعل اللسان العربي معياراً جامعاً ورابطة للقوم، فهو لم يربط العربية بالعرق، بل باللسان، لأنَّ ذلك كما يبدو له علاقة بوحدة الفكر والثقافة.

وهذا يقودنا إلى تعريف الثقافة، ولا شك في أنّنا لم نظفر بتعريف في موروثنا الفكري، وما وجدناه هو المعنى اللغويّ الذي ينتمي إلى سرعة التّعلم والحذاقة والفطنة والذكاء[٣]. إذ هو مصطلح قابل مصطلح culture ولهذا المصطلح مفاهيم متعددة تبعاً للمدارس والمذاهب التي تعرفه وفق منظورها، فمن قائل هي (العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها)[٤]، ونحن نتبنى المفهوم الذي يعد الثقافة محيطاً يعكس حضارة معينة يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر، وبهذا فهو يضم فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي مقومات الإنسان ومفهومات المجتمع، مع الأخذ في الاعتبار انسجام هذه المقومات جميعاً في كيان واحد، تؤديه عملية التكون التي يؤذن بها الفعل الحضاري[٥]، ولاشك في ان مفهوم الثقافة يتضمن الفكر الإسلامي، ونعني عقيدة المسلم التي تفسر وجود الكون، والكون، وما فيه، ومن فيه مخلوق خلقه الله، ويعبر عنها بعبارة (لا إله إلاّ الله)، والنظام الحياتي الكامل الشامل المنبثق عن هذه العقيدة، وذلك لمساعدة الإنسان على القيام بالمهمة التي كلفها الله بها عندما استخلفه في الأرض، وهذا الأمر بلّغهُ النبيّ محمدٌ – صلى الله عليه وسلم – خاتم الأنبياء والمرسلين، وهنا يكتمل الشطر الثاني من الشهادة لتكون (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

اللسان العربي والحضارة:

---

(١) ينظر علم اللغة، د. حاتم الضامن / ١٢٩–١٣٠.

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر: ١٩٨/٢.

(٣) المعجم الوسيط: ٩٨/١.

(٤) المعجم الوسيط: ٩٨/١.

(٥) مشكلة الثقافة، مالك بن نبي / ٣. وينظر: مدخل إلى الثقافة الإسلامية، د. عماد الدين خليل، د. موفق الجوادي، ١٢–٢١.

واللسان العربي يعد أداة التعبير عن هذا الفكر، وعن تفاعله مع الذين يتبعونه، كما يعبر عن تفاعل الشخصية الحضارية التي تتكون نتيجة هذا التفاعل مع الشخصيات الحضارية الأخرى الموجودة.

فبمجيء الإسلام ونزول القرآن واتّخاذه العربية لساناً نقل العرب من واقع القبيلة إلى واقع الأمة، ومن الواقع اللهجي واللغة المشتركة إلى واقع اللّسان الموحد للأمّة. فكان هذا اللسان لغة الدعوة والتبليغ والتعليم والمؤسسات، فبقيت العربية هذا الأمد الطويل. ولم تكن العربية لتبقى لو كان اللسان مرتبطاً بنفوذ الدولة الإسلامية وسيادتها، لأنّ كثيراً من الأمم سادت لغاتها بسيادة نفوذها وانحسرت بانحساره. بل لأنّ اللسان العربي ارتبط بالقرآن، ونزل القرآن في قلوب الأمة منزلة سامية لأنه كلام الله ومنهج حياتهم، فحافظ المسلمون على ألفاظه وتراكيبه، فالقرآن قرآن بمجموع ألفاظه ومعانيه، والتعبير عن تلك المعاني بألفاظ غير ألفاظه يخرجه عن الصورة التي نزل بها وأعجز البشر عليها(١).

إن هذه النظرة إلى القران الكريم تستلزم النظرة نفسها إلى اللسان العربي لأنّه هو المرجع والسبيل إلى فهمه، فكل عدوان على اللسان العربي إنما هو عدوان على القران الكريم. ولعل هذا هو سر مهاجمة الإلحاد للغة العربية ومحاولة تنقصها والتشكيك في ماضيها.

إن كل من يؤمن بالفكر الإسلامي وتصبح لغته الأم اللسان العربي يعد واحداً من أبناء العربية، سواء على الصعيد الفردي أو المجتمعي أو الاممي، كما أن الذين يعيشون حضارة هذه الشخصية حتى ولو لم يكونوا مسلمين فإنهم يعدّون من أبناء العربية حضارةً. فاللسان العربي شرط ضروري ولازم لتكوين الشخصية وإحداث التفاعل بين الفكر الإسلامي ومن يتبعونه على الوجه الأكمل والأمثل(٢).

الأدلة على اقتران اللسان بالحضارة:

من خلال التأمل في الآيات القرآنية التي ربطت بين القرآن وعربيته نستدل على اقترانه بحركة الأمة الحضارية، وهذه الآيات هي قوله تعالى:

١- (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (سورة يوسف الآية ٢).

---

(١) ينظر: ملامح من تاريخ اللغة العربية، د. احمد نصيف الجنابي / ٥٦-٦٦.

(٢) ينظر: استراتيجية القرآن في مواجهة اليهودية العالمية، د. إبراهيم الشهابي / ١٠٤-١٠٦.

٢- (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ) (سورة الرعد الآية ٣٧).

٣- (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(١٠٢)وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (سورة النحل الآيات ١٠٢-١٠٣).

٤- (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا(١١٣)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (سورة طه الآيات ١١٣-١١٤).

٥- (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢)نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ(١٩٣)عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤)بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (سورة الشعراء الآيات ١٩٤-١٩٥).

٦- (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٧)قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (سورة الزمر الآيات ٢٧-٢٨).

٧- (حم(١)تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢)كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (سورة فصلت الآيات ١-٣).

٨- (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) (سورة الشورى الآية ٧).

٩- (حم(١)وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢)إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (سورة الزخرف الآيات ١-٣).

١٠- (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ) (سورة الأحقاف الآية ١٢).

إنّ هذه الآيات الكريمات لم تربط اللسان العربي بالعرق، بل ربطته بالحركة الحضارية للأمة متمثلة بالعقل والتعقّل وإدراك العلم والتعلم والإنذار وتبليغ الرسالة والوصول إلى التقوى، وانتقلت باللسان من دائرة القوم إلى دائرة المسلمين ومن دائرة المسلمين إلى دائرة الناس، وكل ذلك موصل إلى إحداث الذكر لحملة الرسالة بلسانها العربي المبين، قال الله تعالى: (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٤٣)وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) (سورة الزخرف الآيتان ٤٣ و ٤٤). فهذه الخصوصية تتبعها مسؤولية يتحملها الرسول المبلغ عليه الصلاة والسلام وقومه، وهي ستحدث لهم هذا الذكر الذي لن ينتهي بسبب شرف الرسالة.

وفي مقابل ذلك نرى التكامل واضحاً في الذي يحدثه القرآن على المستوى العالمي، اذ يقول الله سبحانه: (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(١٠٣)وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (سورة يوسف الآيات ١٠٣-١٠٤). فليس ثمة تناقض بين فخر العرب بالقرآن وفخر العالمين به (فالإسلام –العقيدة والشريعة– هو الذي صنع حضارة الإسلام، رباطاً صنعه المسلمون على هدى دينهم وبمعاييره، جمع ويجمع كل من دان بهذا الدين، وفي إطار هذه الجامعة كانت الجامعات الأدنى والأخص، هي الأخرى إنجازاً إسلامياً، أو مصبوغة بالصبغة الإسلامية، فوحدة العرب، كأمة ودولة، هي إنجاز إسلامي، صنعه الإسلام سلاحاً للرسالة العالمية وليس نقيضاً لعالميتها ولجامعتها الكبرى)(١).

واللسان العربي على هذا شرط للاجتهاد الإسلامي، وشرط للإبداع الإسلامي، وقد لا يكون شرطاً للتدين بدين الإسلام بوصفه واحداً من روابط العرب، لأنّه على كلا الوجهين يمثل وعاءً للثقافة –فكراً وتكويناً نفسياً– وأداة للتخاطب والتفاعل وتحقيق المشاركة والاتساق، إذ جمع اللسان العربي بين الإنسان المسلم وقومه على الولاء والانتماء لمهام فيها خدمة الإسلام وأهله، اعني الاقتراب من الإخاء الإسلامي الأعم والجامعة الإسلامية الأشمل، التي يتحقق اتساقها بفعل تلقي القرآن عبر لسانه العربي، ومن هنا ندرك لماذا لم يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم العربية عرقاً بل جعلها لساناً، لان وحدة اللسان تؤدي إلى الاتساق الثقافي، في حين ان وحدة العرق ليست شرطاً ان تؤدي إلى هذا الاتساق، إذا تعددت مشارب من ينتمون إليه.

وبناءً على ذلك سيكون فهم قوله تعالى: (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (سورة الحجرات الآية ١٣)، وقوله تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ(٢٢)وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) (سورة الروم الآية ٢٢)، في دائرتي الإسلامية والقومية، إنّ وحدة المسلمين العرب مع العرب غير المسلمين من وجهة نظر العربي المسلم (إسلامية قومية) وعند غير المسلم (قومية حضارية) ولها مع المسلمين غير العرب عرقاً (إسلامية حضارية) على حد ما قال د. محمد عمارة(٢). ونلاحظ في هذه الدوائر الثلاث أنَّ المفهوم الثقافي للسان هو الفاعل، وهو القدر المشترك بينها.

(١) معالم المنهج الإسلامي، محمد عمارة / ١٩١.

(٢) ينظر: معالم المنهج الإسلامي/ ١٨٨.

ومن الأدلة التاريخية على ارتباط اللسان بالحضارة وأنه يحمل مفهوماً ثقافياً وقائع انتشار اللسان العربي، ومن ذلك انتشاره في مصر مُزيحاً اليونانية والقبطية فعلى الرغم من أنّ الفتح الإسلامي لمصر كان في الربع الأول من القرن الأول الهجري (٢٠-٢٥هـ) بيدّ أنّ سيادة اللسان العربي في ميدان لغة التخاطب والثقافة العامة والحديث في المجالات العامة كان في نهاية القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس(١). مما يؤكد أنّ هذه السيادة كانت مرهونة بتجذر الدين الإسلامي وبناء الحضارة وليس بمجرد النفوذ السياسي وهيمنته. وكذا الحال إذا نظرنا إلى بلاد الشام أو إلى بلاد المغرب العربي فإن تمكن اللسان العربي في هذه البيئات كان مرّ خلال صراع حضاري متمثل بما خلفه الروم من وجود في المدن أو حضارات قديمة محلية، استطاع اللسان العربي من خلال الصراع الحضاري ان يحقق وجوده بل ان من الأدلة على ارتباط اللسان بالحضارة أنّ اللسان العربي لم يتيسر له الانتشار بسهولة في بلاد فارس التي كانت مشبعة بالتقاليد والثقافة والشعور القومي(٢).

ولكن بانتشار الإسلام ودخول الناس فيه والذي استغرق زمناً. تكونت الأمة الإسلامية بوصفها أمّة واحدة خرجت من بين دفتي كتاب واحد هو القرآن الكريم، وما أوطانها وشعوبها وقبائلها وقومياتها إلا آيات من آيات الله، وإذا كانت ألسنة الأقوام المختلفة قد تعايشت في ظل دولة الخلافة الإسلامية على مر عصورها المختلفة على مستوى جمهور المسلمين وعامتهم بيد أنّ أهل الذكر والاجتهاد والإبداع والنظر في علوم الإسلام حملوا اللسان العربي في ظل المفهوم الذي بينه الرسول صلى الله عليه وسلم، فانتفى التناقض والتضاد بين القومي والإسلامي بل بين الوطني والقومي والإسلامي، لأنّ اللسان كان عاملاً مهماً في اتساق الثقافة.

إنّ ظهور السلاجقة منذ بدء القرن الرابع واستيلاءَهم على الحكم حتى أواسط القرن السابع واتخاذهم دولة السامانيين ونظمها قدوة لهم أدى إلى ازدواجية اللغة فصارت الفارسية في عهدهم لغة سدة الملك والسفارات الرسمية والسياسية والأدب والشعر فأخذت تنافس العربية في خراسان إلى داخل سورية(٣)، بيد أنّ اللسان العربي ظل مرتبطاً بكتاب الله وظل حاملاً ذلك المفهوم الثقافي وقد عبّر عن هذا الأمر الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) في مقدمة شرح ديوان الحماسة لأبي تمام صادراً عن الرأي الإسلامي المعروف: من أنّ اشرف العلوم كلها علم الكتاب والسنة، ولا يصح حقيقة معرفتها

(١) ينظر: ملامح من تاريخ اللغة العربية/ ٩٨.

(٢) ينظر: ملامح من تاريخ اللغة العربية / ١١٣-١١٨.

(٣) ينظر: م.ن / ١٩٣.

إلا بعلم الأعراب، الدال على الخطأ والصواب، وعلم اللغة الموضحة من حقيقة العبارات المفصحة عن المجاز والاستعارات وعلم الأشعار. وهو يسوق للتنبيه على قيمة الشعر، الحديث المروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنّ من البيان لسحرا وأنّ من الشعر لحكمة) (١).

ويلحظ أنّه بعد سقوط بغداد مالت بعض الشعوب الإسلامية إلى تدوين وتحرير ما تريد بلغاتها المحلية فمضت في سننها باطراد مشهود. إلى جانب هذا فقد سعى علماء العربية إلى حفظ أصولها وإشاعتها، أمّا في القرنين التاسع والعاشر فقد تفاقمت الفتن الداخلية إثر تكاثف الهجوم الخارجي على الأمة مما أدى إلى خمول العربية وعلومها. وفي النصف الثاني من القرن العاشر الهجري والقرن الثاني عشر الهجري كانت العربية تعاني من الازدواج اللغوي إبان العهد العثماني الأول(٢).

محاولات تغييب العربية في العصر الحديث:

بدأت محاولات تغييب اللسان العربي في العصر الحديث مع احتلال نابليون لمصر، إذ انبهر العرب بمدنية الغرب على الرغم من أنّ المجتمع العربي والإسلامي لم يكن كما وصفه الدكتور إبراهيم السامرائي (خلاء عماء) (٣)، واستغل المستعمر الكافر حالة الانبهار هذه فأوحى للجاهلين وللمضبوعين بثقافته بأن اللسان العربي عقبة كأداء في سبيل التقدم وهضم معارف الغرب، لأن هذا اللسان غير قادر على استيعاب معطيات العلم والتقدم واشتغل الغرب على عدة مستويات نحاول إيجازها على النحو الآتي:

١- انتزاع العربية من حضانة الدين والقرآن لكي لا تكون لغة رسالة وحينئذ يمكن العبث بها، ومثل هذا الاتجاه على سبيل المثال لا الحصر الدكتور طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر(٤). وشنوا هجوماً على الأزهر وعلى جامع الزيتونة، وقاموا بسلسلة من الإجراءات العملية:

أ- الدعوة إلى تأليف معاجم محلية لا يثبت فيها إلا ما بقي من لهجات العرب حياً في عامية كل إقليم.

---

(١) ينظر: شرح ديوان الحماسة: ١/١، ملامح من تاريخ اللغة العربية / ١٩٥.

(٢) ينظر: ملامح من تاريخ اللغة العربية /٢٢٩.

(٣) ينظر: اللغة والحضارة / ٣٥

(٤) ينظر الفقرة ٣٦ من الكتاب المذكور /٢٣٠.

ب- إنشاء شعبة الدراسات العربية الحديثة في بعض أقسام اللغة العربية في مصر أخليت من دراسة النحو والصرف والبلاغة ومن الشعر العربي ونصوص الفصحى ومن الأدب العربي والتاريخ الإسلامي ومن القرآن والحديث، ولم يكتب لهذا المشروع النجاح.

ج- كتب القراءة الجديدة التي تعمدت إهمال الفصيح واستعملت لهجة الأسواق وكانت بتوجيه عبد العزيز القوصي وسعيد العريان، وقد أثبتت هذه الكتب فشلها فألغيت.

د- دعوة أنيس فريحة وأمثاله إلى دراسة اللهجات السوقية وآدابها والدفاع عنها من خلال كتابه (محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها) الذي نشره معهد الدراسات العربية العليا سنة ١٩٥٥. وعرض الدعوة في جامعة الدول العربية[١].

٢- إصدار القوانين المحاربة للغة العربية ونفيها بوصفها لغة كتابة وذلك من خلال سلسلة إجراءات:

أ- في الجزائر لم تعد اللغة العربية منذ سنة ١٨٣٠ لغة كتابة، فلم يعد لها عملياً كتب او جرائد تطبع بتلك اللغة وبذلك تراجعت إلى قانون اللغة غير المكتوبة.

ب- في العام ١٩٣٣ صدر قرار رسمي بمنع اللغة العربية في القطر الجزائري. إذ نص على (ان اللغة العربية تعد لغة أجنبية) لا يسمح لها بالظهور إلا في المسجد والزاوية، وأسس للغة الفرنسية في المدارس مما حقق سياسته في تغييب العربية. فألغيت المدارس العربية وحلّت محلها المدارس الفرنسية الخالصة.

ج- إنشاء التعليم المزدوج الذي يجمع بين اللغة العربية واللغة الفرنسية ومثال ذلك مدارس الصادقية في تونس والمغرب.

٣- إنشاء المدارس التبشيرية والجامعات التي تعددت بتعدد الدول والطوائف كالمدارس الإنجيلية واليسوعية والكاثوليكية الأمريكية والروسية والفرنسية والألمانية والإيطالية. ويذكر أنها اهتمت باللغة العربية إلى جانب اللغة الأجنبية. وكان من أهدافها إضعاف التكامل الداخلي في الدولة العثمانية. لكنها بعد ذلك هجرت التدريس بالعربية وتحولت إلى الإنكليزية وأصبحت العربية مادة دراسية من مواد كثيرة وخاصة بعد احتلال البريطانيين لمصر عام ١٨٨١[٢].

---

(١) ينظر: حصوننا مهددة من داخلها، د. محمد محمد حسين /٢٣٧ وما بعدها.

(٢) ينظر: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا، أنور الجندي /١٣١، ١٣٧، ٦٥-٧٠، ملامح من تاريخ اللغة العربية /٢٧١.

٤- هدفت السياسة اللغوية البريطانية بعد الاحتلال إلى التجزئة فدعت إلى هجر الكتابة بالفصحى والدعوة إلى العامية وأهم الدعوات دعوة وليم ولكوكس ودعوة القاضي ديلمور أبناء مصر بالكتابة بالعامية وإعلانها لغة رسمية مع كتابتها بالحروف اللاتينية. وتجددت الدعوة على يد سلامة موسى الذي دعا إلى أن الفصحى تربط مصر بالشرق وهي غير قادرة على التعبير عن الحضارة الحديثة. في حين كانت السياسة اللغوية الفرنسية في المغرب تهدف إلى الضم وتقوم على الفْرنَسَةِ والتجنيس والإذابة والاندماج. فعنيت برامج التعليم باللغة الفرنسية وتاريخ فرنسا وجغرافيتها وتراجم رجالها كما دعت سياستهم إلى تفخيم اللغة الدارجة على نحو دعوة ماسنيون وكولون إلى اللغة العامية المغربية(١)، وكذا الحال في لبنان إذ دعا كثيرون إلى الكتابة بالعامية كدعوة سعيد عقل مثلاً.

٥- تغييب اللغة العربية في الجامعات في عدد من الدول الإسلامية ومن ذلك مثلاً ما كتبه الأستاذ أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان عن الخطة التعليمية لمسلمي الهند ومنهاج العمل بها في كتابه نحن والحضارة الغربية ففيما يخص اللغة العربية فقد دعا إلى أن تدخل اللغة العربية في تعليم الجامعات كلغة ضرورية معللاً ذلك بقوله (فهذه لغة ثقافتنا والذريعة الوحيدة للوصول إلى مآخذ الإسلام الرئيسة ومادامت الطبقة المتعلمة من المسلمين لا تصل إلى القرآن والسنة مباشرة بدون واسطة فإنها لن تجد روح الإسلام، ولن تكتسب البصيرة في الدين، بل ستبقى محتاجة أبداً إلى الشارحين والمترجمين، ومن ثمّ لن يصل إليها ضياء الشمس من الشمس مباشرة. بل يصل إليها بواسطة الزجاجات الملونة من أنواع مختلفة. وهؤلاء رجالنا المثقفون الجدد يرتكبون اليوم في المسائل الإسلامية من فاحش الأخطاء ما يدل على أنهم لا يعرفون حتى ألف باء الإسلام. وليس السبب في ذلك إلا كونهم لا يملكون وسيلة للاستفادة من القرآن والسنة مباشرة ..... ولأجل هذا كله يجب ألا تظنوا مسألة اللغة العربية مسألة لغة عادية) (٢).

٦- تغييب اللغة العربية عن عدد من المؤتمرات الإسلامية المعنية بالإسلام والمنعقدة في بلاد إسلامية. فقد ذكر الأستاذ فتحي يكن في كتابه قطوف شائكة في حقل التجارب الإسلامية رؤى إسلامية من عام ٢٠٠٠ وتحت عنوان (عولمة الحرب على اللغة العربية). إنه دُعِيَ للمشاركة في مؤتمر جامعي أُقيم في بلد إسلامي تحت عنوان دور الجامعة

(١) ملامح من تاريخ اللغة العربية / ٢٦٩، ٢٧٥.

(٢) نحن والحضارة الغربية / ٢٩٩-٣٠٠.

ومكانتها في المجتمع الإسلامي. وحضر ممثلون عن عدد من الجامعات الإسلامية كالأزهر الشريف وقدم ما يزيد على العشرين بحثاً كانت اللغة المعتمدة في المؤتمر هي لغة ذلك البلد أما الترجمة الفورية فكانت إلى اللغة الإنكليزية فحسب. ويعجب الأستاذ فتحي يكن من أن يكون عنوان المؤتمر الجامعي إسلامياً وتغيب عنه لغة الإسلام، ويعجب أن تقدم بحوث قرآنية من غير ترجمة إلى اللغة العربية لغة القرآن. ويعجب أن يعقد المؤتمر في بلد إسلامي وبلسان أعجمي وأجنبي وليس بلسان عربي مُبين. وحينما عرض الأمر على منظمي المؤتمر أسفوا لعدم تمكنهم من تأمين مستلزمات الترجمة إلى العربية. ووعدوا باستدراك الامر مستقبلاً وتتكرر الأسف مرة أخرى(١).

٧- الإجراءات غير الواعية التي تصب في مخططات تغييب اللسان العربي مقصودة كانت أو غير مقصودة ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أ- عدم الاهتمام بالدروس التي تنمي المهارات اللغوية كدرس المطالعة والإملاء والخط والإنشاء الشفهي والتحريري وفي مختلف المراحل الدراسية.

ب- تغييب مادة اللغة العربية من الأقسام غير المتخصصة في اللغة العربية او اختزال تدريسها لفصل دراسي واحد لسنة واحدة.

ج- عدم وجود مختبرات صوت في أقسام اللغة العربية مع وجودها في أقسام اللغات الأجنبية.

د- التسويق لمصطلحات أجنبية مع وجود مصطلحات عربية مقابلة تحمل خصوصية المفهوم العربي والإسلامي.

هـ- اختيار كتب مترجمة يؤخذ على أساليبها الضعف والانحراف عن المستوى الصوابي والبلاغي.

و- دور الفضائيات في إشاعة اللهجات العامية والأساليب الركيكة واللغة الهابطة.

ز- لغة الإعلان غير المنضبطة وعلى المستويات كافة وغياب الرقابة عليها.

ح- انفلات لغة الصحافة من مستويات الأداء الصوابي والأدبي.

٨- ثمة محاولات لبناء شخصيات حضارية وثقافية أحد مكونيها الإسلام والمكون الآخر لسان غير اللسان العربي، يحاول أعداء الإسلام أن يغذوها لأنهم أدركوا أن الشعوب الإسلامية مادامت على صلة وثيقة باللغة العربية فإنها ستظل مرتبطة بالإسلام وبالقرآن وستظل متمسكة بفكرة الوحدة الإسلامية الكبرى. ومن أجل ذلك يبذلون وسائل شتى لصد الشعوب الإسلامية عن

(١) ينظر: قطوف شائكة / ١٨١-١٨٢.

اللسان العربي وحرف العرب أنفسهم عن اللغة العربية الفصحى وتغذية اللهجات المحلية والإقليمية وجعلها هي لغة الكتابة والمحاضرة وتلقي العلوم[١].

وبعد.. فإنّ مهمة المسلمين في مواجهة هذه المخططات تتجلى بحرصهم على وحدة دينهم ولغتهم التي يمثلها اللسان العربي الذي نزل به هذا القرآن الكريم ودونت به سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وأية نهضة لابد من ان تعنى باللسان العربي قراءة وكتابة لأنها المفتاح الأول للاجتهاد على ما يذكر علماء الأصول[٢].

ثبت المصادر والمراجع

١- الإحكام في أصول الإحكام، سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد الآمدي (ت ٦٣١ هـ) مؤسسة الحلبي وشركائه، القاهرة، دار الاتحاد العربي للطباعة، ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م.

٢- استراتيجية القرآن في مواجهة اليهودية العالمية، د. إبراهيم الشهابي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٧، دمشق.

٣- تهذيب تاريخ ابن عساكر، ابن عساكر، طبعة دمشق.

٤- حصوننا مهددة من داخلها، د. محمد محمد حسين، دار الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م.

٥- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، (ت ٣٩٢ هـ). تحقيق محمد علي النجار، بيروت (دار الهدى للطباعة والنشر)، ط٢، د. ت.

٦- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ). تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م.

٧- علم اللغة، د. حاتم صالح الضامن، جامعة بغداد، بيت الحكمة. مطبعة التعليم العالي، الموصل.

٨- الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا، أنور الجندي، القاهرة، ١٩٦٥.

٩- قطوف شائكة في حقل التجارب الإسلامية، رؤى إسلامية من عام ٢٠٠٠، فتحي يكن مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م.

١٠- اللغة والحضارة، د. إبراهيم السامرائي، طبعة بيروت.

(١) ينظر: استراتيجية القران في مواجهة اليهودية العالمية، د. إبراهيم الشهابي / ١٠٧، قطوف شائكة/ ١٨٥.

(٢) ينظر: المستصفى – الغزالي، الأحكام في أصول الأحكام الآمدي. (شروط المجتهد).

١١- مدخل إلى الثقافة الإسلامية، أ.د.عماد الدين خليل، د. موفق سالم نوري، دار أبن الأثير، الموصل، ٢٠٠٤م.

١٢- المستصفى من علم الأصول، أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥ هـ). المطبعة الاميرية، مصر، ط١، ١٣٢٢هـ.

١٣- مشكلة الثقافة، مالك بن نبي، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر.

١٤- معالم المنهج الإسلامي، محمد عمارة، الأزهر الشريف والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية (٣)، ط٢، ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م.

١٥- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق محمد علي النجار، احمد يوسف نجاتي، بيروت عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣.

١٦- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٧- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٨٠٨ هـ)، دار العودة، بيروت ١٩٨١.

١٨- ملامح من تاريخ اللغة العربية، د. نصيف الجنابي، دار الرشيد للنشر، سلسلة دراسات (٢٥٦)، ١٩٨١.

١٩- نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي، دار الفكر، بيروت.

The absence of Arabic in light of containment and civilization conflict

Prof. Dr. Emad Abdel Yahya
Department of Arabic Language / College of Arts

Abstract

Language in the familiar, as Ibn Jani says: (Voices expressed by people to realize their amis). Definition refers to language as sounds and a social phenomenon and to its communicative expressive function. Ibn Khaldun looked at it as the phrase “the speaker about his intention ”, and mentioned that that phrase is a verbal tongue, so it must become an established ability in its active member, which is the tongue, and from this our attention uses the Holy Qur’an (the Arabic tongue) as a term referring to the Arabic language.